السلطان محمد الثالث

فترة الحكم: ١٥٩٥-١٦٠٣

السلطان العثماني الثالث عشر

الألقاب والأسماء الشعرية: الغازي، و"فاتحُ أَكْري"، وعدلي (اسمه المستعار)

اسم الأب: السلطان مراد الثالث

اسم الأم: صَفيّة سلطان

محل وتاريخ الميلاد: مانيسا، في سَهْلِ "شرْط" ٢٦ مايو/أيار سنة ١٥٦٦

العمر عند اعتلاء العرش: ٢٩ عاما

سبب وتاريخ الوفاة: نوبة قلبية، توفي في ٢٠ ديسمبر/كانون الأول ١٦٠٣

مكان الوفاة وموقع الضريح: إسطنبول، ويقع قبره بالقرب من أيا صوفيا

أبناؤه: أحمد الأول، ومصطفى الأول، وسليم، ومحمود، وجِهَانْكير

لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان محمد الثالث، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".

obeikandl.com

تذكر السجلات التاريخية أن محمدا الثالث وُلد خلال حملة زِكَتْوارْ التي قادها جده الكبير السلطان سليمان، وأن السلطان سليمان هو الذي سماه باسم جده السلطان محمد الفاتح. وقد اعتلى محمد الثالث، الذي كان واليا على مانيسا، العرشَ في عام ١٥٩٥ بعد وفاة أبيه مراد الثالث. وهو السلطان العثماني الأخير الذي يصل إلى العرش بعد أن كان واليا على مدينة وهو ولي للعهد..

كانت الحرب العثمانية-النمساوية مستمرة في الوقت الذي تولى فيه محمد الثالث. ونتيجة لسوء إدارة الصدر الأعظم سنان باشا لإمارات ولاشيا وترانسيلفانيا ومولدافيا انقلبت تلك الإمارات الثلاثة ضد العثمانيين وتحالفت مع النمسا. وفي هذه الأثناء، حاصر الجيش النمساوي حصن "إستركون" وفيشكراد، وتمكن من الاستيلاء عليهما في النهاية. وحزِن العثمانيون كثيرا لسماع تلك الأخبار وخصوصا سقوط إستركون. وتمثّل الأغنية الشعبية التي تقول:

"حصن إستركون
مكان عند قمة الماء
يحز في قلبي ألم الفراق"
دليلا على الاشتياق لإستركون.

طلب رجال الدولة وقوات الانكشارية أن يقوم السلطان بتسيير حملة ضد النمسا لمواجهة الهزائم المتوالية. وكانت أمه صفية سلطان تضعه تحت المراقبة الصارمة خلال سنواته كولي للعهد، وهو ما جعله شخصا انطوائيا وخاضعا لأوامرها. ولكن رغم تثبيطها له سار السلطان محمد الثالث بالجيش مما رفع معنويات الجنود والشعب أيضا، الذين لم يروا سلطانا يقود الجيش بنفسه في ميدان الحرب منذ عهد السلطان سليمان. وسار الجيش من إسطنبول إلى بلجراد عام ١٥٩٥. وخلال الحملة وصلت السلطان أنباء وفاة ولده جهانكير البالغ من العمر ثلاثة أشهر. وبُعيد ذلك نجح العثمانيون في الاستيلاء على حصن أَكْرِي، أحد أقوى الحصون في شمال المجر الذي لم يكن العثمانيين قد سيطروا عليه بعد. وبعد ذلك الفتح، سُمي محمد الثالث بـ "فاتح أَكْرِي".

ردت النمسا على فتح الحصن بتنظيم جيش صليبي لمواجهة العثمانيين، والتقى الجيشان عند مزوكرستس (المعروفة أيضا باسم هاجوفا) بالقرب من أَكْرِي، ووقعت معركة شرسة بينهما. أقام محمد

الثالث خيمته السلطانية في موقع إستراتيجي مما مكنه من قيادة جيشه بشكل فعال. وكان الجيش العثماني يعاني من إصابات وخسائر شديدة في الأرواح، فبدأ الجنود يتفرقون ويفرون من ساحة المعركة. وعندما اقترب الصليبيون من خيمة محمد الثالث، شعر العثمانيون بالخطر المحدق بسلطانهم، حتى إن بعضهم اقترح أن يتنكر السلطان فيغير ملابسه ويهرب متخفيا. غير أن السلطان، الذي كان قد اصطحب معه عباءة الرسول ﷺ وسيفه في الحملة، قرر البقاء في ساحة المعركة وقاد جنوده إلى النصر. وكان قد استمع لنصيحة شيخ الإسلام خُوجَة سعد الدين، حيث قال له: "يا سلطاني الحبيب! إنك السلطان العثماني، والخليفة الذي يتبع طريق الرسول ﷺ، ولذلك يحق لك أن ترتدي العباءة الشريفة وتبتهل إلى الله". وكان ذلك مثالا على الإصرار

السياسي الثمين والنادر من هذا السلطان الذي أخذ بزمام الأمور في تلك اللحظات الحَرِجَة.

وعندما رأى الجيش أن سلطانهم يصرُّ على البقاء والقتال، استجمع قواه لمقاومة أخيرة، ولم يقم بذلك الجنود فقط، ولكن أيضا أفراد خدمات الإمداد، ومن بينهم الطباخون وخُدّام القصر وعمال الإسطبلات وراكبو الجِمال والبغال، حيث شاركوا في الحرب بشكل مباشر. وذُهل الصليبيون من تلك المقاومة الشرسة، وفي نهاية اليوم حوّل الجيش العثماني الذي استعاد عافيته الهزيمة المحتملة إلى نصر أكيد. وبعد النصر قام الصدر الأعظم الجديد سيجالا زاد سنان باشا بإحصاء الحضور وإعلان أسماء الجنود الهاربين، ثم أُرسلت مراسيم سلطانية إلى الأقاليم المختلفة مع أوامر بالاستيلاء على ممتلكات الهاربين. فتسبب هذا البرنامج الضخم للمصادرة في وقوع أعمال تمرد عرفت باسم "الثورات الجلالية" في جميع أنحاء الأناضول، وكانت أعمال التمرد تلك سببا لزعزعة الأمن والاستقرار في الأناضول، كما كلفت الدولة العثمانية أضرارا كبيرة خلال عهد السلطان محمد الثالث.

استولت القوات النمساوية على إسترجون وجيور شمال غربي المجر في عام ١٥٩٨، أي في العام التالي. وقد شعر السلطان بخيبة أمل بسبب هذه الهزائم المتعاقبة، وحزن حزنا شديدا أيضا لفقده ابنه سليم، الذي كان يبلغ من العمر أربعة عشر عاما. وفي عام ١٦٠٠ حارب العثمانيون لاستعادة الأراضي التي استولت عليها النمسا وفتحوا حصن كانيسا بالمجر، وكان أحد أكثر المعاقل أهمية في أوروبا. ثم عاد الجيش إلى إسطنبول، وتمّ تعيين حسن ترياقي باشا حارسا لهذا الحصن، فقام جيش صليبي جديد بقيادة النمسا بمحاصرة حصن كانيسا لاستعادته، ولكن أمام الدفاع البطولي وأساليب الحيل الحربية الماهرة التي نفذها القائد حسن ترياقي باشا لم يصمد الصليبيون طويلا وانسحبوا في عام ١٦٠١.

في ذلك الوقت استغل شاه الصفويين عباس الأول الظروف؛ فالجيش العثماني كان يحارب النمساويين، وكانت الثورات الجلالية تثير الفوضى في الأناضول. فتحرك عباس الأول – في تلك الظروف الملائمة بالنسبة له – لإعادة الاستيلاء على الأراضي التي فقدها الصفويون بموجب معاهدة فرهاد باشا، كما سعى عباس الأول للتحالف مع البابوية والدول الأوروبية للحصول على الدعم. وفي غياب علي باشا والي تبريز العام نجح عباس الأول في الاستيلاء على منطقتي تبريز ونقشبان. ووسط الصراعات الدائرة مع النمسا في الغرب وفارس الصفوية في الشرق، تدهورت صحة محمد الثالث. وفي يوم ٢٧ سبتمبر/أيلول عام ١٦٠٣ وفيما كان يهمّ بدخول القصر حذره درويش تبدو عليه التقوى من أنه ينبغي ألا يغفل وأن ينتبه ويستعد؛ لأن شيئا مهما

سوف يحدث خلال ستة وخمسين يوما. وفي ١٨ ديسمبر/كانون الأول اشتد المرض كثيرا على السلطان، وتوفي بعد يومين في ٢٠ ديسمبر/كانون الأول سنة ١٦٠٣، كما تنبأ الدرويش.

خلال عهد السلطان محمد الثالث الذي اتسم بالفوضى، تعرض أمن البلاد والأمن الإقليمي بشكل متكرر وعنيف بسبب تكرار تمرد قوات الانكشارية في إسطنبول والثورات الجلالية في الأناضول. وعانت الدولة العثمانية بالفعل من مآزق خطيرة؛ فقد اشتدت حدة الأزمة الاقتصادية، وتنامى التضخم سريعا، وتصارع الباشوات على السلطة، كما اندلع حريق هائل في إسطنبول عام ١٥٩٨، واجتاحها وباء الطاعون أيضا. وعلاوة على ذلك ظهرت مشكلات إضافية بسبب سيطرة صفية سلطان على ولدها محمد الثالث وتدخلها بشكل مباشر في شؤون الدولة والتعيينات الإدارية. ومن هنا أخفق السلطان محمد الثالث في إظهار جميع خبراته ومهاراته الإدارية أثناء فترة حكمه، والتي كان قد اكتسبها من منصبه السابق حاكما على مانيسا. والواقع أنه كان آخر أولياء العهد العثمانيين الذين أرسلوا للأقاليم المختلفة لاكتساب الخبرة العسكرية والإدارية.

اتسمت شخصية محمد الثالث بالهدوء، لكنه كان انطوائيا ومترددا ومتقلب المزاج وسهل الانقياد. وإلى جانب هذه الصفات الشخصية كان السلطان مسلما متدينا ومتسامحا مع أصحاب الديانات الأخرى. وتشير السجلات التاريخية إلى مدى حرصه على إقامة صلواته اليومية وإلى مدى توقيره للرسول ﷺ.[٢٣] وقد ترك بعض ممارسات أبيه؛ حيث أصبح السلطان الأول الذي يشارك في الحملات العسكرية بنفسه بعد فترة طويلة، كما بذل جهودا كي يتصل بشعبه. ورغم أن حكمه امتد لفترة قصيرة نسبيا فإنها كانت نذيرا بحدوث جملة من الاضطرابات الوشيكة.

[٢٣] تصفه المصادر التي تتناول حياته مرارا وتكرارا بأنه كان يقف على الفور احتراما في كل مرة يسمع فيها اسم الرسول ﷺ.

في لوحة المنمنمات، التي تعود إلى أوائل القرن السابع عشر الميلادي، والتي رسمها طالق زادة صوفي جلبي يظهر السلطان محمد الثالث ممتطيا جواده وهو يقود الجيش خلال حملة إيجر. ومن بين مجموعة الأشخاص الذين يظهرون في اللوحة رجل على حصان يحمل العباءة المقدسة للرسول ﷺ (ملفوفة في غطاء) ويحملها على رأسه.

حفر يصوّر افتتاح الموكب السنوي للعطايا السلطانية المعروف باسم "مواكب الصرة" في حضور السلطان أمام جناح السلطان محمد الثالث. وفي لوحة الإمبراطورية العثمانية المعروفة باسم (Tableau Général de L'Empire Othoman) للفنان مورادجيا دوسون، باريس سنة ١٧٩٠. ويوجد متحف آثار إسطنبول حاليا في موقع الجناح.